التشبيه بين الفنية والتقعيد

د. أحمد بلخضر
جامعة ورقلة

لقد سلك المتأخرون المسلك الصعب الذي سلكه المتقدمون من علماء البلاغة، أمثال: الرماني والعسكري، وبخاصة السكاكي الذي وضع القواعد العامة للبلاغة، ومنها التشبيه الذي نحن بصدد الكلام عنه. وتبعه في ذلك كل من تناول هذا الفن، سواء بقصد التقنين والتمثيل كما جاء في كتاب المفتاح للسكاكي . المتوفى سنة 626هـ . أو بقصد الاختصار والتحليل، كما هو الشأن بالنسبة لما تناوله الخطيب القزويني في كتابيه (التلخيص والإيضاح)، أو بقصد الشرح والتبسيط، كما جاء في كتاب(مفتاح تلخيص المفتاح) للخلخالي . المتوفى سنة 745هـ . ؛ ولكن هذه الشروح لم تأت بجديد، إذ أن المتأخر منها لا يخالف المتقدم كما قال بهاء الدين السبكي: « ويتناولون الشكل والواضح على أسلوب واحد كلهم قد ألفه، لا يخالف المتأخر منهم المتقدم إلا بتغيير العبارة ...»[1].

وقد حاول السبكي أن يخالف بعض ما جاء به المتقدمون بمناقشته لبعض الأخطاء التي . في نظره . وقع فيها القزويني،ولكنه هو الآخر لم يتطرق إلى التعقيدات المتعددة التي اعتمدها هذا الأخير(القزويني) في تقعيده لفن التشبيه،بالرغم من استعانته بعدد كبير من المراجع كما قال في تصريحه:«واعلم أني لم أضع هذا الشرح حتى استعنت عليه بنحو من ثلثمائة تصنيف،وأنه تضمن الخلاصة من مائة تصنيف في هذا العلم،منها ما وقفت عليه،ومنها ما وقفت على كلام من وقف عليه ... »[2].

وبالرغم من هذه الجهود المبذولة لشرح قواعد البلاغة بعامة، والتشبيه بخاصة، فإن التقعيدات الدقيقة والمعقدة بقيت عائقا أمام ذواقي هذا الفن البلاغي، مما حدا بالبعض إلى حذف بعض منها وإبقاء البعض الآخر، كما فعل صاحب الطراز في تبيانه لأقسام التشبيه في قوله :« إعلم أن التشبيه له طرق كثيرة، وتنقسم إلى أنحاء منتشرة باعتبارات مختلفة،

ولكنا نقتصر من ذلك على تقسيمات أربعة هي وافية بالمطلوب ومندرج تحتها شعب كثيرة »[3].

وإذا كانت هذه التفريعات المعقدة قد أثقلت كاهل المتقدمين أمثال العلوي اليمني . المتوفى سنة 749هـ . فما بالك المتأخرين من . المحدثين والمعاصرين . ونلمس هذا التذمر عند الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه (البلاغة العربية في ثوبها الجديد في علم البيان) في قوله: « درجت كتب البلاغة على تفصيل الحديث عن وجه الشبه تفصيلا شديدا، يكاد قارئه من كثرة أجزائه وأقسامه يضل ويضيع، ونكتفي نحن ببيان ثلاثة أقسام ، لها صلة وثيقة بنوع التشبيه »[4]. وكنا ننتظر من وراء هذا التذمر الجديد، وبخاصة لما كان عنوان الكتاب (البلاغة العربية في ثوبها الجديد)، إلا أن آمالنا قد خابت لما وجدنا المؤلف لم ينفلت عن منهج القدماء في التفريعات والتقعيدات، فنجده يحاول في بداية كل قاعدة التبسيط؛ فيقول مثلا في ذكر الأداة وحذفها : « ... يقسم البلاغيون التشبيه إلى قسمين: المرسل: ما ذكرت فيه الأداة، ويسميه بعضهم بالتشبيه المظهر نحو العمر مثل الطيف. التشبيه المؤكد: وهو ما حذفت منه الأداة، ويسميه بعضهم بالتشبيه المضمر نحو: نحن نبت الربا، وأنت الغمام »[5]. وهذا الكلام إلى حد الآن يعد اختصارا لبعض ما جاء في كتب القدماء، ولكنه لم يلبث أن عاد فقال: « التشبيه المرسل أوضاع...» [6]. ويعدد أربعة أقسام التي ذكرها ابن الأثير في كتابه(المثل السائر). وكان جل كلامه هذا في الفصل الأول من التشبيه، ولكنه يعود في الفصل الثاني ويعنونه:« أنواع التشبيه »[7]، محتذيا في ذلك بما فعله علي الجارم ومصطفى أمين في كتابهما (البلاغة الواضحة) الذي خصص للمدارس الثانوية.

وإذا تساءلنا عن الأسس التي اعتمدها هؤلاء في تقسيمهم التشبيه إلى أقسام وأنواع : وما الفرق بينهما ؟ ولعل لعدم وجود الأسس الثابتة والفروق البيِّنة بين المصطلحين، هو الذي جعل الشيخ بكري أمين يدرج التشبيه (البليغ) ضمن (الأنواع)، بينما نجد هذا النوع من التشبيه لدى علي الجارم ومصطفى أمين مندرج ضمن الأقسام وتداخل المصطلحين هذا شكَّل في البلاغة الواضحة خلطا بين الأقسام والأنواع ؛ فمثلا نجد عنوانا يحمل « أقسام التشبيه»[8] . وبعد التمثيل لهذه الأقسام وهي :

(المرسل، والمؤكد، والمجمل، والمفصل، والبليغ) نجد في قسم التمرينات عبارة « بيِّن كل نوع من أنواع التشبيه فيما يأتي »[9]. ومما يؤكد عدم وجود حد فاصل وواضح بين الأقسام والأنواع، ما نجده دائما في كتاب (البلاغة الواضحة): فمثلا لا نجد التشبيه (الضمني والمقلوب) ضمن الأقسام أو الأنواع، بل نجدهما مستقلين بدون عنوان يجمعهما.

وقد حاول الدكتور عبد العزيز قليقلة في كتابه (البلاغة الإصطلاحية) أن يلملم بعض هذه القواعد في مصطلحات عامة، ولكنه اقتصر على: « أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه»[10]، حيث جعلها ثلاثة أقسام: فالأول تمثيلي، والثاني: حقيقي وتخييلي وتضاد، والثالث: مفصل ومجمل غير أنه نسي أن المفصل لا يكون كذلك إلا إذا كانت الأداة موجودة، و إلا سمي مؤكدا، كما هو مفهوم عند علماء البلاغة، ولكن و لكن الشيء الذي يعد جديدا لديه هو:دمجه لعمليتي الإفراد والتركيب اللتين ذكرهما السكاكي، وكذا القزويني وجعله كذلك التعدد ضمن الإفراد، وهو عنده غير التمثيلي

أو المركب ولعله بذلك كان يريد تعميم المصطلح وإعفاء القارئ من كثرة المصطلحات كما نجده بدَّل مصطلح الأقسام بمصطلحٍ آخر هو: « صور التشبيه»[11]، واستدل في ذلك بالأمثلة الأربعة المعروفة التي يمكن أن تكون عليها الصورة التشبيهية باختلاف أشكالها. وضمن هذه الصور الأربعة تدخل كافة العناصر الأخرى التي قعِّدت لفن التشبيه؛ فمثلا لو أخذنا صورة (محمد أسد) فهي أيضا تمثل التشبيه المؤكد، والمجمل باعتبار وجود الأداة ووجه الشبه. وهي كذلك تعد مفردة ومحسوسة لكون لفظة (الأسد) مفردة، وتخضع لإدراك الحواس كما تدخل أيضا في إطار التشبيه المعنوي باعتبار وجه الشبه شيء معنوي لا يدرك بالحواس .

وإذا أردنا أن نتتبع جل التفريعات والتقسيمات الأخرى للتشبيه مثل: (التمثيلي والضمني، والمقلوب، والمحسوس، والتخييلي، والمركب، والمتعدد، والمقيد) لوجدناها تتفرع جميعا من الصور الأربعة السابقة للتشبيه، فالتشبيه(التمثيلي) ما هو إلا شكل لإحدى صور التشبيه التي سبق ذكرها، فمثلا لو أخذنا قول بشار المشهور:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

نستطيع أن نضع هذه الصورة في جملة أقسام مختلفة؛ فبوجود الأداة نعدها تشبيها مرسلا، وكذلك نعتها بالتشبيه المجمل لأن وجه الشبه محذوف، ونستطيع أن ندرجها ضمن التشبيه المركب لكون طرفيها مركبين، وكذلك نستطيع أن نطلق عليها مصطلح التشبيه المحسوس لكون طرفيها يخضعان للإدراك الحسِّي. وعلى هذا المنوال يمكن أن نقيس باقي أضرب التشبيه الأخرى. فإذا تناولنا مثل قول الشاعر: [12]

أصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل

فإننا نجد صاحب المفتاح يصنف هذه الصورة ضمن التشبيه التمثيلي، بينما نجد هذا اللون من التشبيه إذا قيس بمعايير أخرى يكون من التشبيه الضمني، وليس هناك تناقض بين التصنيفين بل هناك تداخل بينهما فقط. لأن هذه الصورة تخضع لمعياريهما معا: (الضمني، والتمثيلي).

نعيد القول: ما دامت هذه التفريعات يمكن إرجاعها إلى أصول أربعة . التي أطلق عليها الدكتور عبد العزيز قليقلة مصطلح (الصورة)، بينما السكاكي والقزويني أطلقا عليها مصطلح (مراتب التشبيه) ـ نقترح إعادة تقسيم التشبيه إلى صور من أساسه، لأن الصورة يمكن أن تشمل جميع التقسيمات المتعددة للتشبيه. وهي أيضا .كما سبق توضيحه . تضم إليها كل التفريعات المختلفة. كما أنها تقترب من جماليات التشبيه أكثر من قواعده الجافة، التي اعتدها علماء البلاغة قديما، وتبعهم في ذلك المحدثون .

وإذا اقتنعنا بلم شمل مصطلحات التشبيه في إطار هذه الصور الأربعة، يمكننا أن نطلق على الأشكال التي يمكن أن تبرز من خلالها هذه الصور مصطلح (الأنواع) فيكون النوع تابعا للصورة وليس العكس.

ولعل بهذه النتيجة التحليلية التي توصلنا إليها يكتسب العنوان السابق لهذه البحث الشرعية العلمية في التقنين الإصطلاحي: (التشبيه صوره وأنواعها) ولتوضيح الرؤيا للقارئ أكثر نُتبع كلامنا بشروح مبسطة للمصطلحات التي سترد في البحث بعامة، وفي الرسم البياني الذي سنورده في الصفحة الموالية بخاصة. وهذه المصطلحات هي:

الصورة التشبيهية: ويراد بها الهيئة البيانية الأخيرة التي يرد عليها التشبيه.

عناصر مادتها: ويقصد بها الألفاظ والأدوات التي تحتويها صور التشبيه.

الشكل: وهو الجزء الخارجي الذي تبرز من خلاله أطراف التشبيه.

الإفراد: وهو أن يكون أحد الطرفين لفظا مفردا أو ما يدل على ذلك، وهو على ثلاثة أضرب:

المطلق: وهو أن يرد أحد الطرفين دون قيد أو شرط.

المقيد: وهو أن يُتبع أحد الطرفين بصفة تقيد خاصيته العامة، ويكون لها دورا جزئيا في تحديد معالم الصورة التشبيهية.

المتعدد: ويراد به: أن ترد عدة أطراف مفردة في نسق تقابلي غير متحد، ويكون هذا التعدد إما في الأطراف وإما في أوجه الشبه لصورة واحدة مفردة.

2 . التركيب:وهو الإتحاد الذي يحدث بين ألفاظ أجزاء الطرف الواحد،وهو على نوعين:

أ . إتحاد مزجي: ويكون بامتزاج أجزاء الطرف الواحد ببعضها البعض إلى درجة يتعذر تجزئتها أثناء تفسير معاني الصورة التشبيهية بعامة.

ب . إتحاد تقابلي: وهو خلاف المزجي، إذ نستطيع فيه أن نلتمس تفسيرا جزئيا لعناصر الصورة في مقابلتها مع بعضها البعض.

3 . القلب أو العكس:ويراد به الشكل غير المألوف الذي ترد من خلاله أطراف الصورة التشبيهية،والذي يطلق عليه ابن جني مصطلح:«غلبة الفروع على الأصول»[13].

رابعا: دلالة الألفاظ: ويقصد بها المعنى الدلالي الذي تحمله ألفاظ الصورة التشبيهية، وهو على نوعين:

أ . دلالة حسية: وهي التي تخضع لإدراك الحواس المعروفة العادية.

ب . دلالة معنوية: وهي التي تخضع للإدراك العقلي.

*رسم توضيحي لصور التشبيه و أنواعها في الجانب النظري

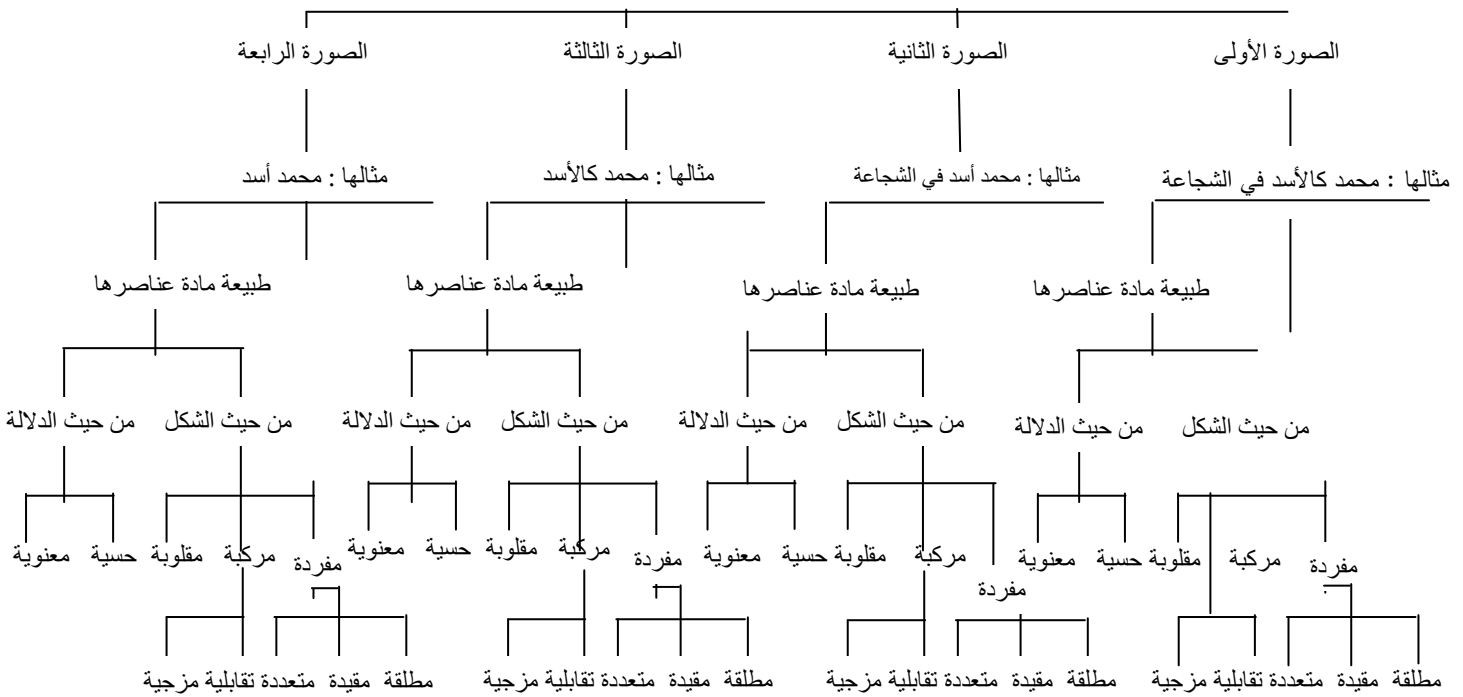

الإحالات

1- عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) بهاء الدين السبكي . مطبعة السعادة مصر . 1342هـ ط2 . ج1 . ص7 . 8 .

2- المصدر نفسه . ج1 . ص28 . 29.

3- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . يحي حمزة العوي اليمني . منشورات مؤسسة النصر تهران . طبع بمطبعة المقتطف مصر ، 1332هـ،1914م ، م1 ، ج1 ، ص285.

4- البلاغة العربية في ثوبها الجديد . علم البيان . بكري شيخ أمين . دار العلم للملايين بيروت . لبنان . 1982م . ط1 . ص35.

5- المصدر نفسه . ص29.

6- المصدر نفسه . ص29.

7- ينظر . المثل السائر . المصدر السابق . م2 . ج2 . ص2.

8- البلاغة العربية في ثوبها الجديد . المصدر السابق . ص41.

9- البلاغة الواضحة . علي الجارم ومصطفى أمين . دار المعارف بمصر. 1383هـ . 1964م . ط17 . ص3.

10-البلاغة الواضحة . المصدر السابق . ص25.

11-البلاغة الإصطلاحية . عبد العزيز قليقلة . دار الفكر العربي القاهرة . 1407هـ . 1987م . ص42.

12-ينظر مفتاح العلوم . المصدر السابق . ص334 . + والإيضاح . المصدر السابق . ص343 . 355.

13-البلاغة الإصطلاحية . المصدر السابق . ص47.

14-الديوان . بشار بن برد . تحقيق محمد الطاهر بن عاشور . الشركة التونسية للتوزيع . والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1976م.

15-الديوان . ابن المعتز. دار بيروت للطباعة والنشر لبنان . 1400هـ،1980م.

16-الخصائص . ابن جني . تحقيق محمد علي النجار. دار الهدى للطباعة والنشر بيروت . لبنان . ج1 . ص300.